

❦ الصدق ❦

لخزرة الكاتب الفاضل قسطنطين افندي الحمصي في حلب

ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبته عن شعري في الرأس مكذوب
أجل أبا الطيب ان الصدق رأس الفضائل وانه لأفضل ما تحلى به
العاقل ودل على كبر الهمة وشرف الشمايل لكني رأيتك تتحامي الكذب في
شعرك ولا تتحاماه في شعرك وتتحاشاه في مفرك ولا تتحاشاه في
منطقتك ولعمري لو لم يكن من شرف الصدق الا ان كل احد يدعيه ما
احتاج فوق ذلك شرفاً ولو لم يكن من دناءة الكذب الا ان صاحبه يذمه
ويتبرأ منه لكفى

ومن الغريب ان الكذب على مقتبه وعموم الاعتراف بشره قد طبق
انحاء الارض كلها فدخل مضارب الشعر في القفار وولج بيوت الاكارين
في المزارع وقصور الكبراء في الامصار الا انه عند البدو الظاعنين اقل
منه عند القرويين المقيمين وعند هؤلاء اقل منه عند اهل المدن وكما
كثر امتزاج الناس بعضهم ببعض وكثرت حاجاتهم زاد احتياجهم الى
الكذب فقلما يستعين به البدو لقلة حاجاتهم ولاستغناء بعضهم عن بعض
الا في القليل من شؤونهم فرماحهم في غزواتهم تضيئهم عنه وفي ايام سلمهم
يقنعون بالتافه من القوت والكسب فلا تضطرم احوال اجتماعاتهم وعاداتهم
الى التحيل والكذب فعم في الحقوق شرع لا يهابون كبيراً ولا يمتنون
صغيراً وقد القوا الحرية في سائر اطوارهم ومن شأنها ان تغلو باخلاصهم عن
عار الكذب واما اهل القرى فخاجاتهم اكثر ولا قدرة لهم على كسب معاشهم

والوصول الى ضرورياتهم الا بالطرق المسنونة واخلاقهم ليست كاخلاق
البدو من حيث الأنفة والترفع عن الدنيا لخلول تربيتهم وسفالة همهم
واختلاطهم باهل المدن فان البدوي يكتفي بقميص يستر به سوءته لباساً
وبقليل من اللبن او بحفنة من الدقيق معجونة بقليل من السمن قوتاً وبعشر
اذرع من نسج الشعر يرفعه على اغصان من الشجر مسكناً . وابن منه احتياج
القروي فلباسه اكثر عدداً وطعامه اوفر الواتاً ولا يسكن الا المبني وهو
لا يغزو الا الارض الصامته الجامدة لا يرمح على ظهر فرس ساجح بل يجرث
على ظهر ثور ناطح وينحضع لحكم شيخ قريته ويرعى الماشية وهي اودع الحيوانات
الاهلة ويتذلل لمزارعه بل مولاه العاني من اغنياء اهل المدن ليحميه من
غارات البدو واعداً للصوص وجور جيرانه المستبدين ويستدين منه
لتقوية زراعته وكلها احوال تدعوه مع ما هو عليه من الجهالة والامية الى
المذلة والصغار فتموت من نفس الأنفة والعزة ويعجز عن تحصيل معاشه
لتسلط مزارعه على مزروعاته وهضمه حقوقه فيتحيل لذلك بادنى الوسائط
واسهلها ولا كالكذب سبب يرتزق به الاوغاد والسفلة . ومع ذلك كله فانه
لما كانت حاجاتهم مقصورة على القليل من الضروري لم يفش بينهم الكذب
فشوة بين اهل المدن الكبيرة ممن نقصت موارد رزقهم عن الوفاء بحاجاتهم
المتعددة وزادت كالياتهم على ارباحهم المحللة وفسدت ادايهم واغوتهم النفس
الأمارة واشتد فيهم الحسد ورام الصغير التشبه بالكبير والصعلوك الاقتداء
بالامير في ملابسهم ومساكنهم وسائر احوالهم فما لوال الى الكذب - وفيه كل
انواع الخيلة والخديعة والمكر - في سائر معاملاتهم وبات الصانع يكذب

التاجر والاعلى يهضم كذبة الادنى بلا استحياء . واشد ما كان منه في
المجتمع الانساني عمومهُ اُمم الفرنجة في القرون الوسطى المعرفة عندم بالقرون
المظلمة بعكس ما نراه اليوم من بعدم عنه واشتمزازهم منه واحتقارهم من
يوصف به وهذا مما يؤيد لك ان الامة كلما زادت معارفها واستبحرت في
ال عمران نهجت سبل الفضائل واقصت عنها الرذائل . ونحن اذا ما اردنا ان
نقفوا آثارهم تحتم علينا ان نتجنب الكذب في جميع احوالنا فلا يكفيك ان
تصدق في اقوالك لصلاح احوالك بل عليك ان تسلك السبيل القصد في
كل اعمالك وتصدق في اكلك ونومك وقيامك وقعودك وذلك بان لا يختلف
ميعاد هذه الامور عن الامس ولا عن الذي قبله فان بذلك دوام عافيتك
وصلاح امرك وقوام مصلحتك وسلامة اعمالك اذ يعلم صديقك ومعاملك
وسمسارك وطاهيك وكاتبك وجايك وغيرهم من تحتاج اليهم ويحتاجون
اليك ساعة نهوضك من فراشك وقعودك لم وساعات اشتغالك بمصالحك
واوقات راحتك واوقات فراغك ومواعيد اكلك وغيرها فلا يدهمك
احد في ساعة ليست له ولا يلهيك غيره بشغل لست له متفرغاً فتضيع
اوقاتك سدى وكثيراً ما تخسر بذلك ما لا تستطيع له تعويضاً . عليك ان
تصدق في نصحتك وودك وعهدك وتقديك وذلك بان تجرد عن الأثرة لا تنظر
الا مصلحة المستنصح وان تخلص لصديقك فلا تكتم عنه عيوبه فالصديق
مشتق من الصدق وان لا تخلف عهداً ما عشت فقد جاء في امثال العامة وعد
بلا وفاء عداوة بلا سبب . وان تجنب التدليس فيما تكلف تقده وتمييزه من
سلعة او كتاب فتنظر فيما يعرض عليك منه نظر الفاحص المتبصر كما نمتنظر

في ذلك الشيء لنفسك ثم تخبر بما ترى اخبار المخلص الصادق فيما يقول فتذكر ما يبدو لك من حسنه وقبحه او صوابه وشططه لا تأخذك في الحق لومة لائم ولا مخافة لسان سفيه شاتم

ولتعلم ان النقد رائد التقدم في طريق الكمالات الانسانية وشعار الامم المستبجرة في العمران وقد عرف قدره فضلاء الافرنج فاصبح عندهم علماً قائماً برأسه تطأطأ له رؤوس فحولهم ولا يحسن الكتابة فيه الا الائمة الافراد فلا يظهر عندهم كتاب او رسالة الا تلتها فصول النقد تنشر في صحف الاخبار ومجلات العلوم فتفند الرأي الضعيف وتأني على اطراء الرجيم وتبين الاغلاط وتبدي ما يعن لاصحابها من مدح او ذم فهم " لا يقبلون على الحق رشوة ولا يرضون من امانة العلم ثناً " غير هيايين ولا محايين ولا ملقين الكلام على عواهنه ولا مباينين بمنزلة الكاتب ولو كان رفيعاً ولا باخسين من حقه ولو كان وضعياً فعرف الكاتب منهم حدة ولم يتعمده ونهض النقد بكتاباتهم وسائر عوائدهم واخلقهم الى ارفع المنازل واسمى المراتب وكان منه ان قيد الكتاب - الذين يحترمون العلم ويرغبون في مرضاة اهله - فلم يقدم احدهم على نشر كتابته وتأليفه الا بعد الفحص الطويل والتهذيب المدقق وهو على يقين من انتقاد الناقدين فكانهم تمثلوا بقول الشاعر

اياك تعرض للنحاة قصيدة ما لم تكن بالفت في تهذيبها

فاذا عرضت الشعر غير مهذب ظنوه منك وساوساً تهذي بها

ولما كان العالم العاقل يعلم ان العصمة لله لم يستنكف اكبر علمائهم من الاقرار بخطائهم وغلطهم عند اظهارهم من النقاد وهو يسرع الى اصلاحه عند

طبعه ثلثية وقد يعترف بفضل الناقد عليه لا تأخذه في ذلك عزّة النفس
الكاذبة ولا الانانية الحادة . واني لنا ان نؤمل البلوغ الى سلم الترقى في
معارج الفضائل البشرية والحضارة الحقيقية ونحن لا نرضى الا ان يستحسن
ولورياة كل مانقوله ونفعله ولا نطبق ان نسمع الا التمليق والمداهنة وان
نكذب ويكذب علينا ابد الدهر . واین نحن من اولئك القوم ان البغاث
بارضنا يستنسر وان صغير الكتاب عندنا يشمخ ويستكبر فلا يصبر على
نقد كلامه وان بين الناقد الغلط ووضح الخط والشطط ولا يزيده
ذلك الا اصراراً على الخطاء ومكابرة وعناداً

يشدّ عن القياس ولا يبالي ويحيي غلطة منه بغلطة

وهو يحسب انه قد احاط بعلوم المتقدمين والمتأخرين وان الصواب
وقف على كلامه بل قد يتخطى حدود الادب الى الماراة والصلف والدعاوى
العريضة فينصب نفسه في مقام الحكم ويتعثر بمن يعلوه علواً عظيماً وقد
لا يكتفي بهذا المذر والمذيان حتى يعترض على اكبر ائمة العصر وفحول علمائه
ويقيس نفسه ببعض مشاهير العلماء المتقدمين

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

ومثل هؤلاء الصغار يعدّون نفوسهم بين اهل النهضة الادبية في هذا
العصر وقد استفواهم شيطان الغرور وغشي ابصارهم غشاء التمليق لحاد بهم
عن سوا الطريق فراحوا وكلمة الحق لها في نفوسهم فعل السهام لا يغفرون
لقائلها وان تراخت الايام . وباليت شعري ما هم صانعون لو اصابهم من مناخر
النقد ما يصيب بعض كتاب الافرنج ففيا كتبه جول لوميتر الكاتب الشهير

من النقد المولم والمآخذ التي اخذها على الشاعر بول فرلين والكتاب التحرير
اميل زولا وغيرها عبرة لاولي الالباب ولو كان بول فرلين وغيره من
امثاله كبعض المتفطرسين عندنا لشغلوا جول لوميتز عن النقد بالمحاكمة والمهذر
ولكان حالم كحالنا من الجهل والادعاء والمخرقة والخيلاء ولكنهم عرفوا فضل
النقاد وقدروا خدمتهم العلية حق قدرها فاجازوهم عن كل سطر من كتاباتهم
بالاموال الطائلة واحلوم بينهم المنزلة الرفيعة ونحن ولا احايي عندنا من هو
اعلم واكتب من جول لوميتز فتى يتأدب فتاننا بادب بول فرلين وامثاله
ففتى كل كاتب واديب جملة من محاسن الاخلاق
ان عجب الاديب مستعجب اضفاف تقيمه على الاطلاق
هذب الطبع قبل تهذيبك الله غل وجانب ما اسطعت شر الشقاق
جوهر النفس ظاهر من وراء قول يحلوه ذئبق الاوراق
فاتضع ترتفع باعين اهل علم وانبد مقال اهل النفاق